/الطاو/ هو أعمق وأوسع الرموز التي أعدتها الثقافة الصينية ولذا سنبدأ به وسنعود إليه في الفصل الختامي.

إلا أن ذلك لايعني أن /الطاو/ هو أقدم قيم الحضارة الصينية، لأن ما من حضارة تعطي دفعة واحدة مفهوماً تجريدياً روحانياً للأشياء، ولاتبلغ ذلك إلا عبر حقبة من التأمل بالظواهر الطبيعية يظهر في نهايتها مبدأ روحاني، لايُعبر عنه في بادىء الأمر، يمكن أن يشمل جميع الأشياء؟

الطاو السحري والطاو الصوفي:

لم تحرر الحكمة الصينية الأكثر قدماً من التصورات السحرية إلا قليلاً. إلا أن المرء يشعر بوجود شيء من روحانية الطاو في كتاب /لي كينغ/ (وسطاء الوحي) المقدس.

لقد شهد مفهوم الطاو تطوراً طويلاً قبل أن يكتسب المحتوى الصوفي الذي سنجد تعبيره الصرف في كتاب /طاو لي كينغ/ الذي ينسب إلى أعظم حكماء الصين /لاو ـ تسو/. يبدأ هذا الكتاب بتأكيد ذي مغزى: الطاو الذي نستطيع تسميته ليس الطاو.

نستنتج من ذلك أن /لاو ـ تسو/ يريد التمييز بوضوح وجلاء بين الطاو السحري والطاو الصوفي. ويعتبر أن الطاو السحري محاولة خرقاء، محكوم عليها بالفشل، في تناول جوهر الأشياء.

/لاو ـ تسو/ و/كنفوشيوس/:

من كان /لاو ـ تسو/ هذا؟ يُصور /لاو ـ تسو/ عادة راكباً على جاموس الذي يرمز إلى الإجترار الهادىء للواقع. وكثيراً ماصور أيضاً بالتنين، رمز للوعي. وحسب التقاليد، وهذا ماسنراه فيما بعد، كان /كنفوشيوس/، خصمه الروحاني، هو أول من شبه /لاو ـ تسو/ بالتنين.